ليالي القاهرة

«كان الظلام العصيب المخيم على القاهرة في سنوات الحرب الأخيرة، ظلاماً متجاوباً مع قتام في النفوس، وحلوكةٍ تجثم على الصدور، وقد مرَّت بالشاعر انطباعات من ذلك الضنك الشامل فسجلها صوراً في هذه الملحمة المختلفة الضروب والايقاع».

- ١ -

في الظلام

أليلايَ ما أبقى الهوى فيّ من رشدِ
فـردي على المشتاقِ مهجتَـه ردِّي
أينسى تـلاقينـا وأنـت حـزينـةٌ
ورأسـك كابٍ من عيـاءٍ ومن سهـدِ
أقـول وقـد وسّـدتُـه راحتي كمـا
تـوسّد طفـلٌ متعبٌ راحـة المهـدِ..
تعاليْ إلى صدرٍ رحيبٍ وساعدٍ
حبيبٍ وركنٍ في الهوى غير منهدِ
بنفسي هـذا الشعـر والخُصَـل التي
تهـاوت على نحرٍ من العـاجِ مُنقـدِ
ترامتْ كما شـاءتْ وشاء لهـا الهوى
تميـل على خـدٍّ وتصـدفُ عن خـدِ
وتلك الكـروم الـدانيـات لقـاطفٍ
بيـاض الأماني من عنـاقيدهـا الرّبْـدِ
فيـا لـك عنـدي من ظـلامٍ محببٍ
تـألق فيـه الفـرقُ كـالـزمن الـرغـد

ألا كُـلُّ حسنٍ في البريـة خـادمٌ
لسلطانـة العينيـن والجيـدِ والقـدِّ
وكـل جمـالٍ في الـوجـود حيـالـه
بـه ذلـةُ الشـاكي ومـرحمـةُ العبـدِ
ومـا راع قلبي منـك إلا فـراشـةٌ
من الدمعِ حامتْ فوق عرش من الوردِ
مجنحـةٌ صيغتْ من النـور والنـدى
تـرفُّ على روضٍ وتهفـو إلى وردِ
بهـا مثل مـا بي يـا حبيبي وسيِّـدي
من الشجن القتـال والظمـأ المُـردي
لقـد أقفـر المحـرابُ من صلواتـه
فليس بـه من شاعـرٍ سـاهـرٍ بعـدي
وقفنـا وقـد حـان النـوى أي مـوقفٍ
نحاول فيه الصبرَ والصبرُ لا يجـدي
كـأن طيوفَ الـرعب والبين مـوشـكٌ
ومـزدحمَ الآلامِ والوجـدُ في حشـدِ
ومضـطرمَ الأنفـاسِ والضيقُ جـاثمٌ
ومشتبـك النجـوى ومعتنق الأيـدي
مـواكب حُـرس في جحيم مؤبـد
بغيـر رجـاءٍ فـي سـلام ولا بـرد
فيـا أيكـة مـدّ الهـوى من ظـلالهـا
ربيعـاً على قلبي وروضاً من السعـد
تـقلصـتِ إلا طـيـفَ حـبٍّ مـحـيّـرٍ
على درجِ خـابيِ الجـوانب مسـودِّ
تـردَّدَ واستـأنى لـوعـد ومـوثـقٍ
وأدبـرَ مخنـوقـاً وقـد غص بـالـوعـدِ
وأسـلمني لليـلٍ كـالـقبـرِ بـارداً
يهب على وجهي بـه نفسُ اللحـدِ

وأسلمني للكـون كـالـوحش راقـداً
تمـزقني أنيـابُـه في الـدجى وحـدي
كـأن على مصـر ظـلامـاً معلقـاً
بـآخـر من خـابي المقـاديـر مـربـدِ
ركـودٌ وإبـهـامٌ وصـمـتٌ ووحـشـةٌ
وقـد لفهـا الغيبُ المحجبُ في بُـردِ
أهـذا الـربيـعُ الفخمُ والجنـةُ التي
أكـاد بهـا أستـافُ رائحـةَ الخـلدِ
تـصـيـرُ إذا جـن الـظلامُ ولـفـهـا
بجنـحٍ من الأحلام والصمتِ ممتـدِّ
مـبـاءةَ خمّارٍ وحـانـوتَ بـائـعٍ
شقيٍّ الأماني يشتري الرزق بالسهـدِ
وقـد وقف المصبـاحُ وقفـة حـارس
رقيب على الأسـرارِ داعٍ إلى الجدِّ
كـأن تـقـيـاً غـارقـاً فـي عـبـادةٍ
يصوم الدجى أو يقطع الليلَ في الزهدِ
فيـا حارس الأخـلاق في الحيِّ نائمٌ
قضى يومَه في حومة البؤسِ يستجدي
وسـادته الأحجـارُ والمضجـعُ الثـرى
ويفتـرش الافـريـزَ في الحـر والبـردِ
وسـيـارةٌ تمـضـي لامـر مـحـجـبٍ
محجبـة الأستـارِ خـافيـة القصـدِ
إلى الهدف المجهولِ تنتهبُ الدجى
وتومض ومض البرق يلمـع عن بُعدِ
متى ينجلي هذا الضنى عن مسالكٍ
مـرنقـة بـالجـوع والصبـرِ والكـدِّ
يـنقـبُ كلبٌ فـي الحـطام وربـمـا
رعى الليل هرٌّ سـاهرٌ وغفـا الجندي

أيا مصر ما فيك العشية سامرٌ
ولا فيك من مصغٍ لشاعرك الفردِ
أهاجرتي، طال النوىٰ فارحمي الذي
تركتِ بديدَ الشملِ منتثرَ العقدِ
فقدتكِ فقدانَ الربيعِ وطيبَهُ
وعدتُ إلى الإعياء والسقم والوجدِ
وليس الذي ضيعتُ فيك بهيِّنٌ
ولا أنتِ في الغيّاب هينة الفقدِ

* * *

بعينيك استهدي فكيف تركتني
بهذا الظلام المطبق الجهم أستهدي
بورْدِكِ أستسقي فكيف تركتني
لهذي الفيافي الصم والكثب الجردِ
بحبكِ استشفي فكيف تركتني
ولم يبق غير العظم والروح والجلدِ
وهذي المنايا الحمر ترقص في دمي
وهذي المنايا البيض تختال في فودي
وكنت إذا شاكيت خففت محملي
فهان الذي ألقاه في العيش من جهدِ
وكنت إذا انهار البناءُ رفعتُهُ
فلم تكنِ الأيامُ تقوىٰ على هَدِّي
وكنت إذا ناديتُ لبيْتِ صرختي
فوا أسفاً كم بيننا اليوم من سدِّ
سلامٌ على عينيك ماذا اجنتا
من اللطف والتحنان والعطف والودِّ
إذا كان في لحظيك سيفٌ ومصرعٌ
فمنكِ الذي يحيي ومنكِ الذي يردي
إذا جُرِّد لم يفتكا عن تعمدٍ
وإن أغمدا فالفتك أروع في الغمدِ

هنيئـاً لقلبي مـا صنعتِ ومـرحبـا
وأهـلا به إن كـان فتكُكِ عن عمـدِ
فـإنـي إذا جـن الـظلامُ وعـادنـي
هواكِ فأبـديتُ الذي لم أكن أبـدي
وملتُ بـرأسي كـابيـاً أو مـواسيـاً
وعندي من الأشجان والشوقِ ما عندي
أُقبِّـلُ في قـلبي مكـانـاً حللتِـه
وجـرحاً أنـاجيه على القـرب والبعـدِ
ويـا دار من أهـوى عليـكِ تحيـة
على أكرم الذكرى على أشرف العهدِ
على الأمسيـات الساحـرات ومجلسٍ
كـريمِ الهوى عفٍّ المـآرب والقصدِ
تـنـادُمنـا فيـه تبـاريـحُ مـعشـرٍ
على الدم والأشواكُ ساروا إلى الحلدِ
دموعٌ يذوب الصخر منها فـإن مضوا
فقد نقشوا الأسماءَ في الحجرِ الصلدِ
ومـاذا عليهم إن بكـوا أو تعـذبـوا
فإن دموعَ البؤسِ من ثمنِ المجدِ..

- ٢ -

أنوار

طـابـت بـكِ الأيـامُ وافـرحتـاهْ
أنـتِ الأمـانيْ والـغـنىٰ والـحيـاهْ
فـليـذهـبِ الـلـيـلُ غـفـرنـا لـهُ
مـا دام هـذا الصبـح عقبى دجـاهْ